البعدُ الإلهيُّ
المفقود في فلسفة الإنسان المعاصر

باسم الماضي الحسناويّ

الإنسان اليوم كائنٌ في ذروة الشقاء، رغم أنَّه محاصرٌ بكلِّ ما من شأنه أن يكون منبعاً للدعة والراحة والسعادة، فما أكبر المفارقة إذن في أن تضرب هذه الأشياء التي إنما تجلّى عقل الإنسان قروناً طويلةً جداً، وخاض مغامراته في الفكر والفلسفة والعلم الناشئ أوّلاً في حجر الخرافة، حتى بلوغه مرحلته التجريبيَّة والتطبيقيَّة العالية، حصاراً محكماً لا يأمل الإنسان في الخلاص منه، إلا بأن يقذف نفسه خارج دائرة الحضارة مطلقاً؟.

وهل أصبح من المحتوم على الإنسانيَّة أن تعيش هذا التناقض الصارخ على مستوى الإنتماء. إما إلى الحضارة، فيكون محاصراً وشقياً بها إلى هذا الحدّ، وإما إلى زمنٍ صوفيٍّ افتراضيٍّ انعزاليٍّ مختلقٍ يمارس فيه كلَّ أصناف الإغتراب؟

ما الذي جعل الإنسان يوجد فيتمنى لو أنه لم يوجد، وما الذي جعل الإنسان ينظر إلى نفسه في مرآة نفسه فلا يرى إلا خلقاً ممسوخاً لا تربطه بحقيقة نفسه أيَّة رابطة من أيِّما نوعٍ، اللهمَّ إلا كونه محتفظاً إلى الآن بالهيأة الخارجيَّة لأبناء آدم، أيام كان الإنسان يشكِّل مغامرة الخلق الأولى في أن يتميَّز الكائن العاقل والمفكِّر عن الكائنات الأخرى غير العاقلة وغير المفكِّرة، إذ تكون مسؤوليات الغريزة بالنسبة لضرورة البقاء الإنسانيِّ أكبر بكثيرٍ من مسؤوليات الغريزة بالنسبة للكائنات الحيَّة الأخرى.

هل يعقل أن يحقِّق الإنسان كلَّ هذه المنجزات الكبرى ذات البعد التقنيِّ والتكنلوجيِّ إلى مستوى أن يجلس الإنسان بصوته وصورته مع إنسانٍ آخر في غرفةٍ ألكترونيَّةٍ واحدة، وإلى مستوى أن يبحث لنفسه عن منزلٍ آخر في أبعد كوكبٍ داخل مجرَّة درب التبّانة، ولا يحظى إلا ببصيصٍ شاحبٍ جداً من ضوء إنسانيته الضائعة، مع أنه شديد الحساسيَّة الآن بما لا يقاس مع الحقب التأريخيَّة الأخرى التي حفلت بوجود البشر، تجاه كلِّ ما كانت الإنسانيَّة القديمة تعتبره غير متناقضٍ مع كرامتها وشرفها وضرورات شعورها بالجوهر الإنسانيِّ البعيد المسؤول عن إمداد كلِّ تفاصيل حياتها بالمعنى الحقيقيِّ للسعادة، وهل يعقل أن يعلن الإنسان نفسه وجوداً منكوباً ومنتكساً أمام كلِّ ما يدعوه إلى الغرور والإفتخار والزهو في الوقت نفسه؟.

أوَ لم يتجرَّد الإنسان عن الكثير من أوهامه وخرافاته وأساطيره التي تحكَّمت

بوجوده دهراً طويلاً من الزمن، فلن تجد إنسان الحضارة اليوم عابداً لأوثانه الحجريَّة في الغالب، كما لن تجده مؤمناً بخرافاته العديدة التي حفلت بها كتب الأنثربولوجيا وتأريخ الأساطير في العالم، فلماذا لا تكون ثقته بنفسه هذه، واستقلال عقله في الإختراع والإكتشاف مصدراً من مصادر نشوته بنفسه، بدلاً من أن تكون مصدراً لانهائياً من مصادر تعاسته التي لا تُعدُّ كلُّ كلمات الشعراء ونصوص الفلاسفة بالتي تكفي لتعبِّر عن عمق هذه المأساة.

لا بدَّ أنَّ صنماً ضخماً كبيراً أضحى مقدَّساً عند إنسان العصر الحديث صدَّه عن أن يتواصل مع مصادر نخوته على إنسانيته المفقودة الضائعة، وربما لم يكن ذلك الصنم المقدَّس خارج ذاته بالضرورة، فإنَّ أصنام الإنسان توغل في داخل ذاته أكثر كلَّما فارق عقله السذاجة في التفكير، واتجه نحو التدقيق والتحقيق والتنظير والتطبيق بشكلٍ أقوى وأكثر فاعليَّةً وإيغالاً وعمقاً!.

قد يكون هذا الصنم الجديد المبتكر مشتقّاً من عالم الموضوعات، أو أنه منتمٍ إلى عوالم الذات وآفاقها البعيدة الموغلة في اكتشاف الخرافة والأسطورة والتعلُّق بهما داخل ما تعتقده تفكيراً وعلماً مبرَّأً منهما، وإنَّ من أخطر الأصنام في داخل هذه الذات الإنسانيَّة الملغزة أن تتحوَّل هي إلى صنمٍ مقدَّسٍ معبودٍ في منظارها، فإذا بالصنم يسجد بين يدي نفسه، وإذا به واقعٌ في لا فخِّ الشرك البسيط فقط، حيث يعبد الإنسان مخلوقاً جامداً، أو حياً آخر إلى جنب الإعتراف بالحيِّ الأكبر الذي هو الله عزَّ وجلّ، بل يسقط بجدارةٍ في فخِّ الشرك المركَّب، حيث لا يكون حلُّ شفرته بالأمر السهل اليسير، لأنَّ المسافة المفترضة بين الذات والموضوع مفقودةٌ بالكامل، فلا يعود التمييز ممكناً، لأنَّ الذات في مواجهة الذات من موقع الإعتراف بألوهيَّة نفسها، ما يعني عبوديتها المطلقة كشرطٍ لا بدَّ من تحقُّقه لهذه الألوهيَّة الإفتراضيَّة الكاذبة، حتى يتحوَّل المشهد إلى تركيبٍ مزيَّفٍ مكوَّنٍ من عين الوجود البسيط غير القابل للتجزئة والإنقسام.

ربما كان شبنجلر متشائماً إلى حدٍّ يثير الإشمئزاز حقاً، أكثر من ابن خلدون أو أوجست كونت، حيث سيطرت عليهم جميعاً تلك النعرة السوداويَّة المظلمة بشأن التأريخ والحضارة، حيث لم يعودوا يرون تأريخ الحضارات التي تتعاقب على وجود الإنسان بصفته خالقاً لها بالطبع، لكن بصفته كائناً عضوياً يكتنفه من مراحل الصيرورة

والإنتقال من اللحظة الأولى للوجود، حيث الطفولة إلى نهايتها، وحيث الشيخوخة والهرم النهائيُ فالموت المحتَّم في آخرة الأمر، وربما كان اشبنجلر أيضاً بصفته فيلسوفاً لا يهمُّه شأن منجزات المدنيَّة الغربيَّة في بعدها التقنيِّ والتكنلوجيّ، بقدر ما يهمُّه شأن الفلسفة والشعر والفنّ، فيكون هو المعنيُّ وحده من هذه الزاوية بما تقتضيه هذه النظرة السوداويَّة المتشائمة، وللناس غيره أن يستمتعوا بهذه المنجزات التي حفلت بها حياة البشر بفضل هذه المدنيَّة المدانة منه بكلِّ هذا الركام المتشائم من العبارات والصياغات التي حفلت بها كتاباته المختلفة.

إلا أنَّ هذا ليس صحيحاً على إطلاقه، بعد أن سار الزمان بعده تلك المسافة التي برهنت حتى لذوي النزوع المتمسِّك بقدسيَّة هذه المنجزات حدَّ الإستماتة، على أنَّ ما تحدَّث به لم يكن صادراً عن تلك الرغبة الخاصَّة بهيمنة الشعر والفلسفة والفنِّ على الحياة، من منطلق أنه مساهمٌ في هذه الأنماط الخاصَّة من الإبداع، بل كان صادراً عن ذلك الإحساس الإشكاليِّ الفلسفيِّ الواقعيِّ العميق بما سوف تحسُّ به البشريَّة كلُّها في المستقبل، إذ دخلت هذه الحضارة الغربيَّة مرحلتها المدنيَّة الماديَّة، حيث تنتفي رغبتها بالفلسفة والأدب والفنِّ والدين وكلِّ ما يشكِّل الحياة المعنويَّة للإنسان في السابق، وتتركَّز رغبتها في كلِّ ما هو صارمٌ فاقدٌ للروح تماماً كالحديد الصلب وموادِّ البناء.

مشكلة الإنسان المعاصر أنه يريد أن يكون على قدر المسؤوليَّة في أن يكون إله نفسه، بينما هو في الواقع جاهلٌ حتى بالوظائف الواقعيَّة التي ينبغي أن يقوم بها الإله في عالم الوجود، فبعد أن صدَّق الإنسان أكذوبته على نفسه، عاد فواجه الحقيقة فاكتشف أنه لم يكن إلا غافلاً عن أبسط مقوِّمات المعنى الإلهيِّ في نفسه، فلم يشأ الإعتراف كذلك، فليس معقولاً أن يتنازل الإله المزيَّف عن مكابرته فجأةً أمام الذات وأمام التأريخ الذي اعتبره مهاناً من قبل بسبب اعترافه بالعبوديَّة على نفسه، وبما أنه اختار التحالف مع المكابرة إلى الأبد، فلم يعد أمامه من حلٍّ سوى أن يستهين كثيراً بالماهيَّة الحقيقيَّة للعقل، ليصبح على مشارف الجنون.

لقد تصوَّر إنسان العصر الحديث أنه بمجرَّد أن يكفَّ عن تسليط الشعور وأحكام العقل الميتافيزيقيِّ على الأشياء التي يحفل بها الوجود، وعلى الوجود نفسه، بما في ذلك الإنسان نفسه، فإنها تتحوَّل إلى مجرَّد أشياء وظواهر ماديَّةٍ قابلةٍ للدراسة

والفهم، شأنها جميعاً شأن أيَّة حجارةٍ ملقاةٍ على قارعة الدرب، بفرقٍ وحيد، وهو أنها تتفاوت فيما بينها في تعقيد التركيب وبساطته، بحيث يتطلَّب بعضها جهداً تجريبياً أو تطبيقياً علمياً أكثر من بعضها الآخر، ومن هنا كان علم الإجتماع الذي نشأ على يدي أوجست كونت دون أن يختلف عنه في شيءٍ دوركهايم في كتابه"قواعد منهج علم الإجتماع" إذ سار على خطاه، يقرِّر أنَّ التعامل مع الظواهر الإجتماعيَّة يجب أن يتمَّ كما لو كانت هذه الظواهر أشياء طبيعيَّةً جامدةً بالضبط، وكذلك فعل فونت إذ طبَّق قواعد المنهج التجريبيِّ على الظواهر النفسيَّة، كما أنَّ واطسون لم يختلف عن هذا المنهج في شيءٍ من خلال مشروعه السيكلوجيِّ السلوكيّ، إذ كانت الغاية منه هو التعامل مع الكائن البشريِّ بصفته حائزاً على البعد البيلوجيِّ فقط، بدون أيِّ حسابٍ لوجود العقل والنفس فيه، ولا تختلف المشاريع العلميَّة الأخرى ذات النزعة التجريبيَّة والوضعيَّة عن هذا التوجُّه العامِّ في شيء، لأنها كلَّها تقريباً سيطرت عليها نزعة إنتاج المعنى واستخراج الدلالة من الأشياء كلِّها والإنسان بالذات بالإستناد إلى هذا المنهج التجريبيِّ والوضعيِّ الذي اختزل الإنسان كثيراً، إلى درجة أنه ليس أكثر من هذه الأخلاط الماديَّة التي يتكوَّن منها كيانه، فصار شقيقاً لأيَّة حجارةٍ ضئيلةٍ في الكون، بدلاً من أن يكون المنافس المنتصر الأكبر لكلِّ الوجودات الروحانيَّة على خلافة الله.

هل أصبح العلم إلهَ العالم والإنسان، أقصد العلم الماديَّ التطبيقيَّ التجريبيّ، ولا أقصد العلم الكليَّ الواقعيَّ الذي لا يتجزَّأ، فإنَّ العلم بهذا المعنى الأخير إنما هو الله الذي لا يعزب عنه مثقال ذرَّةٍ في الأرض ولا في السماء، فهل أصبح العلم بالمعنى الماديِّ الجزئيِّ الأوَّل جديراً فعلاً بأن يصبح ربَّ الإنسان وإلهه، الذي ما تبلور بشكلٍ معتدٍّ به إلا بهذه الطائرات العملاقة، والبارجات الحربيَّة، التي تعادل في سعة مساحتها مدناً كاملة، والسفن الفضائيَّة التي تمخر الفضاء الخارجيَّ جيئةً وذهاباً إلى القمر والمريخ، وربما ستمخر الفضاء الخارجيَّ يوماً إلى خارج حدود مجرَّتنا هذه أيضاً، فمن يدري فإنَّ العالم يشاهد من منجزات هذا العلم في كلِّ يومٍ جديداً لم يكن ليخطر على الأذهان حتى في الأحلام. أما قبل هذا فقد كان العلم قناً، خاصةً في تلك الأزمان التي كانت الرحى هي الإختراع الإنسانيّ الوحيد الذي يدلِّل على عبقريَّة الإنسان في الإنتقال من مرحلة الهمجيَّة إلى مرحلة المدنيَّة، في مفهومها القديم طبعاً، وكان هذا القنُّ مهذَّباً

جداً، فلم ينادِ في الأجيال البشريَّة: أنا ربكم الأعلى فامنحوني ذلَّ الجباه وصَغارَ القلوب.

العلم التطبيقيُّ إله الإنسان؟!.

تلك المفارقة الأولى على صعيد العقل البشريِّ في مرحلةٍ هي الأحفل بالمتناقضات على طول مسيرة التأريخ!.

إنها تستحقُّ وصفها بالمفارقة، بناءً على أنَّ العلم الحديث أصيب بداء العظمة على حساب الإعتراف بالوجود الحقِّ لذات الله، انطلاقاً من كونه استطاع أن يقلِّص كثيراً من مساحة الجهل بحقيقة الأشياء من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى فإنه استطاع أن يحقِّق من المنجزات على الصعيد الماديِّ والتكنلوجيِّ والتقنيِّ والبايولوجيِّ إلخ ما لم يكن متحققاً من قبل، ولا يحتاج العلم إلى أن يستمع إلى اعترافاتنا المتكرِّرة بحقيقة هذا الإدِّعاء، لأنه متحققٌ فعلاً، وهو مرتكزٌ في العقل الإنسانيِّ المعاصر بصفته بديهيَّةً من البديهيات.

لكنَّ الأمر لا ينتهي عند هذا الحدّ، فلا بدَّ من محاكمةٍ أخرى لهذا الإعتقاد، على صعيد ما يريد أن ينتهي إليه من النتائج التي لا تترتَّب بالضرورة على التسليم بتلك الحقيقة، وهذه هي المحاكمة: إن كان يحقُّ للعلم التطبيقيِّ الحديث أن يزعم أنه الإله من دون الله، على أساس هذه المنجزات الماديَّة والتكنلوجيَّة والتقنيَّة وغيرها بالضبط، وعلى أساس ما تقلَّص من مساحة الجهل بالحقائق التي لم يكن يعرفها الإنسان، فإنَّ العلم في الجانب الماديِّ أو التطبيقيِّ منه في السابق، قد كان له نصيبه من هذا الكشف والتقدُّم والتقليل من وطأة جهل حقيقة الأشياء على العقل الإنسانيّ، فيكون من حقِّ العلم التطبيقيِّ القديم على هذا المبنى أن يدَّعي لنفسه المدَّعى ذاته.

فإن أراد شخصٌ افتراضيٌّ أن يشكل علينا بأن يقول: إنَّ المقارنة بين ما حقَّقه العلم الحديث من هذه المنجزات وبين ما حقَّقه العلم القديم منها ليست صحيحةً بوجه، لأنها تختلف نوعاً وكماً، بحيث أنَّ ما يتحقَّق منها في عامٍ من خلال خطوات اطراديَّةٍ سريعةٍ يتفوَّق على ما تحقَّق منها خلال القرون المتطاولة من التأريخ المكتوب، إلا أنَّ هذا الإشكال ليس تاماً على الإطلاق، لأنَّ العلم الحديث مهما كان متفوِّقاً من ناحيتي الكمِّ

والنوع على ما حقَّقته العلوم الإنسانيَّة والتطبيقيَّة الموروثة القديمة، فإنه لا يستطيع أن ينكر حقيقةً مفادُها أنَّ جانباً كبيراً من شؤون العالم وتفصيلاته المختلفة، يظلُّ مجهولاً بالنسبة إلى علم الإنسان، وتلك حقيقةٌ ينطق بها كبار أقطاب العلوم التجريبيَّة والتطبيقيَّة في العصور الحديثة، وسواءٌ كانت مساحة الجهل بالأشياء وحقائقها المتنوِّعة الغامضة ضيقةً أو واسعة، فإنها مساويةٌ في القيمة المعرفيَّة من ناحية الإستنتاج الفلسفيِّ لما كانت تمثِّله مجهولات الإنسان القديم بالنسبة إلى علومه التي كانت سائدةً قديماً، فإنَّ كلا المستويين من العلم لهما جانب الكشف عن حقائق الأشياء قليلاً أو كثيراً، كما إنَّ لهما جانب العجز عن رفع نقاب الجهل عن الكثير من حقائق الأشياء الأخرى كذلك، ولهذا فإنَّ الإنصاف يوجب علينا الإعتراف بهذه الحقيقة ابتداءً من الجهة الفلسفيَّة المحضة.

أما ما يقال على لسان الفلاسفة الوضعيين من أنَّ ما بقي في خانة الجهل من الأشياء فإنَّ العلم الحديث يتكفَّل الكشف عنه مستقبلاً لا محالة، فإنه يمثل قضيَّةً مؤجَّلةً في أفضل الأحوال، مع أننا لا نعتقد إطلاقاً أنَّ سلَّة مجهولات الإنسان من هذا العالم الماديِّ سوف لن تكون فارغةً في يومٍ من الأيام، وهذا ما تصرِّح به العلوم التطبيقيَّة والتجريبيَّة علانيةً جهاراً في كلِّ يوم.

لا يمكن أن ينظر الإنسان بواسطة التلسكوب والمراصد الحديثة جداً إلى ربِّه، كما إنَّ الفضيلة لا يمكن اختبارها بإخضاعها للنظر إليها بواسطة المجهر، وما علاقة المختبر بأن تعرف أنَّ هناك عالماً آخر يحاسب فيه المرء فيثاب أو يعاقب بحسب ما يكون عليه من درجات الكمال المعنويِّ في هذه الحياة التي نحياها بكلِّ تفاصيلها، وكلَّما أمعنّا النظر في مغزاها ألغزت فيه أكثر، حتى لا نجد لنا من منقذٍ إلا مدد السماء، وعندما يأتي يقف السادة الوضعيون لنا بالمرصاد ليعيدونا إلى نقطة الصفر في تحديد موقع الحيرة واللغز الكونيِّ الكبير، دون أن يقدِّموا لنا بديلاً من عالم المعنى على الإطلاق، بل كلُّ ما ينصحوننا به أن نقتنع بأنَّ وجودنا كلَّه ليس إلا كفؤاً لوجود أيِّ حجرٍ تُشيَّد منه هذه العمارات الفارهة للسياسيين البرجوازيين الفارهين، فيتضاعف حجم يأسنا بناءً على هذا من أن نقف على ساحة الجزاء الإلهيِّ لينتصف لنا منهم، ونبصق على رؤوسهم التي خططت ودبرت لكلِّ هذا التجاوز على الحقِّ الإنسانيِّ في غفلةٍ تامَّةٍ عن رقابة

الضمير.

لم يغلق باب الأسئلة الميتافيزيقيَّة التي تتعلق بالروح الجوهريَّة الكامنة في العالم أيُّ عالمٍ في التقنيَّة، كما لن يستطيع أن يسبر غور الإنسان حقيقةً لا العالم المهتمُّ بالشأن البيلوجيِّ للجسم البشريّ، ولا علم النفس الذي يزعم أنه طبيبها الخبير بأسرارها الخفيَّة، فالإنسان لغزٌ كبير، والوجود كلُّه لغزٌ أكبر يحتاج إلى عقل الله كي يفسِّره، وهو إذ يفسِّره التفسير الكامل لا تستطيع عقولنا المتلبِّسة بإمكانياتها الضيقة المحدودة قياساً إلى سعة حجم هذا اللغز أن تفهم كلَّ ما يتحدَّث به الله سبحانه، فنضطرُّ آنذاك للتسليم عن قناعةٍ بأنَّ الوجود سرٌّ يتكفل بخلقه وإدارته الله سبحانه، ونحن إنما نمثل المركز العاقل في هذا الوجود اللغز، لكن ليس إلى درجة فهم كلِّ الدقائق الصغيرة التي يتكوَّن منها، وحتى على مستوى المعرفة الإجماليَّة غير التفصيليَّة ببعدي العالم المعنويِّ والماديِّ يبقى المجال مفتوحاً دائماً للريادة الجديدة، وكشف المزيد مما يعمِّق هذه المعرفة الإجماليَّة، دون أن تصل إلى المعرفة التامَّة بالتفاصيل في يومٍ من الأيام.

إنَّ الشعر والفلسفة والفنَّ وكلَّ ما تدبِّجه يراعات علماء الدين، مضافاً إلى كلِّ الجهود التي يقوم بها العلماء التجريبيون في كلِّ العصور، تنشد شيئاً واحداً، ليس بالضرورة أن يكون ذا انعكاسٍ على الإنسان من ناحيتي النفع والضرر، بل ربما رضي الإنسان بأن يفهم ما يدور حوله فقط، إذ الجهل بالمحيط هو أكثر الأشياء إزعاجاً لعقله، لكنَّ كلَّ هؤلاء حصلوا على بعض قبسات المعرفة، وبقي الجزء الأكبر منها مختفياً إلى الآن، بل إنَّ الأسئلة التي تلحُّ على الإنسان اليوم هي من النوع الأكثر تعقيداً، والأشدِّ إلغازاً، كما إنها من ناحية الكمِّ تمثل الرقم العصيَّ أكثر على الإحصاء، مع أنَّ الإنسان ذاهبٌ آيبٌ من القمر إلى الأرض، ومن المريخ إليها، وبدلاً من أن يجد أنَّ هذه الحالة كاشفةٌ عن أنَّ هذا الجهل بالعالم ليس نابعاً من كون أنَّ العلم مازال في الطور البدائيِّ قياساً إلى ما سيجيء بعده، بدليل أنَّ العلم كلَّما أصاب طوراً أعلى انفتح على المزيد من الأسئلة التي تكشف عن سرمديَّة الإلغاز، بقدر ما يكون نابعاً من طبيعة المعرفة البشريَّة التي تعتبر محكومةً بما لا تكون معه مؤهلةً لممارسة دور الله سبحانه، كما قال الله عزَّ وجلّ: ﴿ثمَّ ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾.

نيتشه

عملياً فإنَّ نيتشه كان في حياته وفي آراءه وفي النهاية البايلوجيَّة والسيكلوجيَّة هو التجلي الأعلى للحضارة الغربيَّة في الطور الذي وصلت إليه في القرن العشرين، فلم يكن الحقّ إلا الصياغة الآيديولوجيَّة المخادعة لمنطق القوَّة عند المنتصر، كما إنَّ الله سبحانه لم تعد الحضارة الغربيَّة تشعر بضرورة وجوده، حتى لو كان موجوداً بالفعل في رأيها، وهذا ما تعبِّر عنه مقولته الشهيرة ﴿إنَّ الله قد مات﴾ فإنَّ الموت لا يقال إلا عن حيٍّ بلغت حياته الطور النهائيَّ من مراحل الحياة، فتكون عبارة نيتشه هذه متضمنةً لمعنى أنَّ الله موجودٌ وهو حيٌّ طيلة الأزمان التأريخيَّة السابقة، لكنه في عصر المدنيَّة الغربيَّة قد مات، لأنه لم يعد ضروريَّ الوجود، كما تتضمَّن معنىً آخر، وهو أنَّ العقل الغربيَّ لم يعد في ظلِّ النزعة العلمويَّة التي عبرت عنها فلسفة نيتشه خير تعبير، لم تعد بالتي تستطيع أن تنظر إلى الأشياء نظرة تجريد، بل إنها لتحدد الأشياء تحديدات هندسيَّةً أو بايلوجيَّةً أو فيزيائيَّةً أو كيميائيَّةً بحتة، فالله سبحانه موجودٌ، وهو ليس تجريداً، بل هو حائزٌ على هذه الأبعاد التي تنتمي إلى عالم المادَّة في رأي نيتشه الذي هو المثال التجسيديُّ للعقليَّة العلمويَّة التي حكمت المدنيَّة الغربيَّة في طورها الأخير، ولأنه حائزٌ على هذه الأبعاد التي هي من خصائص الكائنات الحيَّة في عالم الحسِّ والشهادة، فإنه قابلٌ للموت بناءً على هذا، ولا يختلف في شيءٍ عن أيِّ كائنٍ بيلوجيٍّ آخر، وبهذه الطريقة تعامل العقل العلمويُّ الغربيُّ في كلِّ المراحل التي سبقت قليلاً أو أعقبت حياة نيتشه، فإنَّ الحضارة الغربيَّة صارت تتعامل مع كلِّ الأشياء التي تنتمي إلى عالم التجريد أو المعنى تعاملاً ينمُّ عن أنها ودَّعت هذا النوع من المقاربات التي تقيم وزناً لهذا البعد من الوجود في العالم، فإذا فرضت أنَّ هناك شيئاً معنوياً أو تجريدياً فإنها سرعان ما تضفي عليه صفات العالم الحسيِّ أو الماديِّ لتخضعه إلى معايير ومحاكمات لا تنطبق عليه ألبتة، فتمتدُّ سلسلة الخطأ في الإستنتاج من هذه الجهة دون أن تشعر إطلاقاً بوجود هذه السلسلة، فينتابها الغرور بعد ذلك بأنها تعاملت مع أخطر كائنات التجريد والمعنى ولم تعثر له على أثر، وإذ ترى أنَّ الواقع الذي يفرضه العقل لا يساعد على نفي الوجود بالنسبة إلى خالق العالم مثلاً، فإنها تسارع إلى إعلان موته بهذه الطريقة السطحيَّة الفجَّة، كما يفعل الأطفال إذ يعبرون عن هواجسهم واعتقاداتهم حول الأشياء غالباً.

لقد أدَّت هذه النزعة العلمويَّة التي حكمت العقل الغربيّ، والتي هي معادلٌ موضوعيٌّ تامٌّ لعبارة نيتشة آنفة الذكر إلى نتائج وخيمة للغاية على مستوى وجود أنساقٍ من القيم والأخلاق والتصوُّرات عن الضمير والحقّ والعدل والفضيلة والرذيلة والقوَّة إلخ لم تعد تلتقي على أرضيَّة التفاهم مع الأنساق المعرفيَّة التي أنتجت مفهوماً آخر عن كلٍّ هذه الأشياء، ومن هنا فإنَّ الحضارة الغربيَّة إذ سعت إلى إيجاد قطيعةٍ نهائيَّة مع كلّ ما أنتجته الحضارات الأخرى، بما في ذلك الحضارة التي نشأت في ظلّ المسيحيَّة في السابق، فليس معقولاً إطلاقاً أن يتحدث بعض من يقارب الأمور بسذاجةٍ كاملة عن معقوليَّة التفاهم مع الفلسفة الغربيَّة التي تحكمها هذه الأنساق المعرفيَّة النابعة مباشرةً من سيادة نزعتها العلمويَّة هذه، أو عن إمكانيَّة الحوار على قاعدة المشترك الدينيّ أو العقائديّ حول الله سبحانه، إذ يعتقد أصحاب الديانات الكتابيَّة والمسلمون بوجود الله، فهذا ما لم يعد ممكناً بعد نيتشه في واقع الأمر.

نعم، من الممكن الحديث عن وجود هذه الأرضيَّة للتفاهم حول بعض المفاهيم التي ما زال العقل العلمويُّ يتشبَّث بها بصفتها الآيديولوجيَّة الدعائيَّة المحضة، مع أنها لا تعبر عن وجود أيّ انسجامٍ منطقيٍّ في وجودها ضمن نسقٍ معرفيٍّ لا يعترف بكلّ هذا، كحقوق الإنسان والمساواة والعقلانيَّة وحقّ الإنسان بالحياة إلخ. مع الإنتباه إلى أنَّ الذهنيَّة العلمويَّة للحضارة الغربيَّة لا تنسجم منطقياً مع كلّ هذا، إلا أنه يحتاج إلى الحديث عن كلّ هذه الإعتبارات من أجل الإقناع لا غير، أي إنَّ النسق المعرفيَّ الغربيَّ لا ينتج إلا ثقافة الإمبرياليَّة والإستعمار بمختلف الأنماط، كما لا تتولَّد منه إلا تلك الكوارث المتصوَّرة على صعيد اتخاذ مبدأ القوَّة معياراً وحيداً لوجود الحقّ، واللذة الجسديَّة المباشرة ميزاناً للفضيلة، وهكذا، فأيُّ حقوق إنسانٍ وأيَّة حريَّةٍ للشعوب وللإنسان مع وجود منطقٍ كهذا يحكم الأشياء والعالم.

نعود إلى الحديث عن الصورة الموحدة بين حياة نيتشه بصفته كائناً فرداً وبين الرؤية الغربيَّة بصفتها نمطاً تفكيرياً يتصرَّف طبقاً للأفكار والهواجس والمعتقدات التي راودت عقل نيتشه وجعلته ينتج تلك الفلسفة، فإنَّ الحضارة الغربيَّة لم تبلغ بعد مرحلة جنونها البايلوجيّ المباشر، لكنها مجنونةٌ من الداخل، بمعنى أنَّ الحفر المعرفيَّ يشير إلى وجود حصاد الجنون هذا، إلا أنه لم يطفح على الجسد كلياً ليقلبه إلى كيانٍ مجنونٍ

محكومٍ عليه بالحجر في مستشفى المجاذيب حتى الموت، أو أنَّ البشريَّة ترتكب أكبر خطأ في حياتها لو أنها سمحت له بالتنقُّل في طرقاتها وأسواقها ومحالِّ اجتماعها ومباشرتها للحياة، لأنَّ هذا النمط من الجنون النيتشويِّ الذي يحكم وجود الحضارة الغربيَّة في الطور الأخير هذا ليس من ذلك النوع المسالم أو الذي يكتفي بمشاكسة الناس بالكلمات البذيئة فقط، بل هو مسلَّحٌ بكلِّ ما يشكِّل الخطر الجسيم على الإنسان، وهذا ما أفصح عنه التطوُّر البايلوجيُّ لكيان نيتشه نفسه، حيث انتقلت بكتريا الجنون من تفكيره إلى كيانه البايلوجيِّ نفسه، فجعلت جهازه العصبيَّ الذي كان مازال يحتفظ بمظهره العاقل يتفتت ويتعرض تبعاً لهذا إلى أكبر عمليَّة نسفٍ في تأريخ العقول.

لا أعرف كيف اختار نيتشه لنفسه هذه الزاوية المظلمة جداً في عمارة الوجود، فلعله لم يكن منتبهاً إلى كونه لا يدفع العالم باتجاه حضارةٍ أرقى، كما إنه لم يكن ليدفع الكائن البشريَّ خطوةً واحدةً إلى الأمام باتجاه المزيد من القدرة والقوَّة والسيطرة على مكامن الضعف في نفسه، فالعزم على المزيد من القوَّة مهددٌ باستمرارٍ أن ينقلب إلى المزيد من العزم على الضعف والإستكانة، لأنَّ منطق الصراع على أساس الحقِّ المطلق للكائن الأقوى في أن يتسيَّد على سواه مهددٌ بالعقبات التالية:

العقبة الأولى: إذ يكون الكائن المعيَّن قوياً في طورٍ من أطوار الوجود، فإنه لا يضمن لنفسه استمرار ذلك الطور مدَّةً أطول، مع الإعتراف بأنَّ أصل إرادة القوَّة والإتجاه نحو التقدُّم لم تنتفِ من الكائن بالجملة، بل هو محتفظٌ بمقدارٍ معتدٍّ به منها، فإذا لم تكن إرادة القوَّة مسوَّرةً بالقوانين والتشريعات التي تستند إلى منطق العدل بعيداً عن منطق المساواة بين الحقِّ والقوَّة فإنَّ ذلك القدر المتبقي من إرادة القوَّة الذي هو شرط التقدُّم سيذهب هدراً في النهاية، ولك أن تتخيَّل كم من الطاقات والإمكانات تهدر في طريق التضحية بها جميعاً لمصلحة القوة الأكثر سحقاً وتمرداً على إرادات القوة الأخرى في العالم. ولك أن تتخيل بعد ذلك أيضاً مدى الإجحاف الذي سيحصل بمخطط التقدم البشريِّ إذا ما اتبع حرفياً تعليمات نيتشه.

العقبة الثانية: إنَّ صراع القوى فيما بينها طبقاً لهذا الأسلوب من الصراع الذي يضحي بكلِّ مبادئ الحقِّ والعدل، وينتصر لمبدأ القوَّة على وجه التحديد، من شأنه أن يفضي إلى فلسفةٍ لا يمكن على الإطلاق تخيُّل وجود إرادةٍ حرَّةٍ إلا بالنسبة

للإرادة الأقوى من جميع الإرادات الأخرى في النهاية، وهذا من شأنه أن يحوِّل شكل العلاقات بين البشر إلى أكبر دكتاتوريَّةٍ يمكن تخيُّلها على الإطلاق، وهذه واحدةٌ من النقاط التي تؤشِّر مدى ما تقع فيه الرؤية الغربيَّة من التناقض، إذ تصدر عن الروح العامَّة لفلسفة نيتشه، ومع ذلك لا تتنازل مطلقاً عن الدعوة إلى التمسُّك الحرفيِّ بكلِّ المبادئ الديمقراطيَّة، مع ما فيها من تجاوزٍ على مبدأ تفاوت القدرات والكفاءات بين البشر، مما يجعل وزن كلِّ رأيٍ مع الآخر في عمليات التصويت والإقتراع ليس واحداً، بل ليس هناك من داعٍ إطلاقاً إلى فلسفة الديمقراطيَّة إلا بالتنازل عن المبدأ النيتشويِّ من رأسٍ، والتخلي عنه لمصلحة الفلسفات المضادَّة لنيتشه، وهذا ما لم تفعله المدنيَّة الغربيَّة المعاصرة على وجه التحديد.

العقبة الثالثة: إعتبر نيتشه أنَّ السيطرة النهائيَّة للأقوى على الأضعف تصبُّ في صالح المشروع الحضاريِّ للأقوى، وهذا ما يعكس صدق رؤيتنا حول فلسفة نيتشه، كونها لا تتجاوز دوافعها الأدبيَّة والشعريَّة على وجه الخصوص، بمعنى أنَّ النظرة الفلسفيَّة لا يمكن أن تكون إلا بمقدار ما فيها من التماسك المنطقيّ، والتأمل العميق في الأفكار من حيث نقاط انطلاقها، ومن حيث النتائج الحتميَّة التي تؤدِّي إليها، فكيف يمكن أن نتصوَّر أنَّ تفرُّد الكائن الأقوى ونسفه لكلِّ ما يجاوره من إرادات القوَّة الأخرى لمجرَّد أنه قادرٌ على سحقها وإزالتها من الوجود، والحال أنَّ القويَّ يضيف قوَّةً إلى قوته عندما يتكامل مع تلك القوى التي يخطط كائن نيتشه لنسفها ومحقها من خارطة الوجود، فهذا منطقٌ غريبٌ للغاية حقاً، والواقع لا يساعد على تصديق هذا المدَّعى، ليس على مستوى الرؤية المثاليَّة، بل على مستوى ما هو واقعيٌّ ومتجسِّدٌ من العلاقات بين البشر.

ليس للعلم التجريبيِّ هذه الإمكانيَّة الهائلة في أن يجعل من نفسه بديلاً عن العقل، فالعقل طامحٌ إلى أن يخلق إشكالياته الكبرى حول الوجود وأصل العالم والحياة والموت وحقيقتها ومبدأ الإنسان والحياة الدنيا والعالم الآخر والحقِّ والعدل والظلم إلخ، وإنَّ كلَّ ما هو من هذا السنخ من الإشكاليات التي يتساءل عنها عقل الإنسان ليست من اختصاص العلم التجريبيِّ ولا للمختبر دخلٌ في الإجابة عليه، ولو أنَّ أمر تلك المشكلات الوجوديَّة كان محسوماً أو أنه فعلاً لا معنى له كما تقول الوضعيَّة المنطقيَّة

لما تعاقب وجود الفلاسفة الكبار حتى في ظلّ المدنيَّة الغربيَّة التي أذهلت نفس عقل الإنسان الذي أبدعها فجعلته مغروراً، الذين شغلتهم هذه الأمور وأقضَّت مضاجع تفكيرهم، وجعلتهم يتأملون مليّاً فيها حتى استنفد بعضهم حياته فيها ولم يحسم الجواب حولها، سوى أنه امتلك معرفةً إجماليَّةً حول واقعيتها وحقيقتها، واكتفى بأن يدلي بدلوه في الدلاء مع أفواج المتحيرين من الفلاسفة الكبار قبله.

فالوضعيون المنطقيون يختزلون مشكلة المعرفة في إقصاء هذه الموضوعات من ساحة الإهتمام، ويعتبرون الحديث حولها هلوسةً لا ينبغي للعقل البشريّ بعد هذا الإستمرار فيها، وبهذه الطريقة يكسبون راحتهم بتجاهل ما هو موجودٌ حقاً، كمن أزعج إحدى عينيه الألم فقفأها وطبَّبها وعالجها، ليكتفي بعينٍ واحدةٍ في النظر إلى الأشياء، ولا بدَّ أن يضطرب المشهد المنظور في عينه الواحدة، ولا يكون بالدقة نفسها التي هي في حوزة من ينظر بعينين اثنتين، وهو مصرٌّ مع ذلك على أنَّ رؤيته هذه هي الحجَّة الدامغة على الرؤية الأخرى، دون أن يختلف حال الوضعيّ المنطقيّ عن حال الكائن الغيبيّ الذي يسند الكثير من مهامّ النظر الحسيّ والإستقرائيّ التجريبيّ إلى ما مهمته محصورةٌ في الكشف عن جانب الغيب والمعنى الخفيّ، فلا يقتنع بأيَّة حقيقةٍ علميَّةٍ ما لم توفر له البرهان من الرواية المذكورة في الكتاب الأصفر الفلانيّ ليقول بعد ذلك إنَّ الرواية هي التي اكتشفت تلك الحقيقة العلميَّة، وليس لجهد الإنسان المعاصر أيُّ فضلٍ في ذلك.

هذان نمطان من التفكير، كلاهما يمثل نظرةً عوراء إلى الأمور، ولا يمكن الوثوق بهما على كلّ حال.

فلا نيتشه ولا فلاسفة الوضعيَّة المنطقيَّة بإمكانهم أن يحلوا مشكلة الإنسان الحديث إطلاقاً، لأنَّ الأوَّل يشاء إنساناً كلياً متوحشاً يصادر حقوق الآخرين ولا يتضامن معهم ولا يجعل بينهم وبينه حكماً إلا القوَّة والبطش والإبتلاع، ولا عبرة في أن يكون متقدِّماً من الناحية التكنلوجيَّة أو العلميَّة أو الماديَّة بعد ذلك، فالنزعة الوحشيَّة واحدةٌ مهما كان مظهرها، بدائياً بسيطاً يعتمد على الحجارة أو الفأس أو السيف أثناء بطشه بالآخرين أو متطوراً مستثمراً لكلّ تقنيَّة الأسلحة الفتاكة والمتطوِّرة، فالأمر سيان، ولا يختلفان في نظر العاقل المنصف في حالٍ من الأحوال.

أما فلاسفة الوضعيَّة المنطقيَّة فقوموا معي لكي ننسجم مع منطقهم الخاصّ، ولنرمي كلَّ كتب الفلاسفة، وكلَّ دواوين الشعراء، وكلَّ ما كتبه الفلاسفة في المحرقة، مضافاً إلى الكتب الإلهيَّة، فلنتجاهل وجودها جميعاً لكي تصبح حياة الإنسان جرداء قاحلةً من أيِّ بعدٍ معنويٍّ في الفكر، لتكون النتيجة أنَّ الإنسان ليس كائناً وحشياً فقط، بل ليكون أشبه شيءٍ بالحجارة.

الأخلاق والعلم

يقول الدكتور ولتر ستيس: (افترضوا الآن أنَّ البشر فقدوا إيمانهم بالله أو بغرضيَّة العالم فماذا تكون نتيجة تصوراتهم للخير الأخلاقيِّ والشرّ؟ لن يكون باستطاعتهم بعد ذلك تعريفها من زاويةٍ إلهيَّةٍ أو غرضيَّةٍ كونيَّة، لكن يمكن تعريفها من زاوية غرضٍ ما، لأنَّ المبدأ يقول أنَّ كلَّ شيءٍ ذا قيمةٍ لا بدَّ أن تكون قيمته بالنسبة لغرضٍ ما، ومن ثمَّ فلا بدَّ للناس أن يجدوا غرضاً ما خلاف الأغراض الإلهيَّة والكونيَّة يؤسسون عليها القيم الأخلاقيَّة، فما هي الأغراض الأخرى التي يمكن أن توجد؟ لن يكون هناك سوى الأغراض البشريَّة، وينتج من ذلك أنَّ البشر مضطرون إلى الإيمان بوجهة نظرٍ عن طبيعة الخير والشرِّ بناءً عليها يعتمدون على الأغراض البشريَّة. غير أنَّ ذلك هو حسب تعريفه المذهب الذاتيّ، وهي وجهة النظر التي تقول إنَّ العالم ليس نظاماً أخلاقياً) [1].

تلك هي المشكلة، فإنَّ الأخلاق لا يمكن لها أن توجد إلا بأن تستند إلى ركيزةٍ أساسيَّةٍ لا يمكن أن تكون هي ذات الإنسان، وإذا لم تكن هي ذات الإنسان، فلا بدَّ أن تكون هي الله سبحانه وتعالى، فالعالم الغربيُّ سار باتجاهٍ تطوريٍّ خلال مسيرته العلميَّة جعلته ينتقل من هذه الركيزة المتينة إلى الركيزة الذاتيَّة، وبيَّن ذلك أن علوم الفيزياء والمتكتشفات العلميَّة في علم الفلك والبايلوجيا وغيرها، جعلت الإنسان الغربيَّ يستنتج نتيجةً خاطئة، وهي أنَّ العالم لم يعد بحاجةٍ إلى السيطرة الإلهيَّة، ما دام العلم أصبح قادراً على إدارة العالم من خلال ما يبشر به يومياً من المعرفة بكلِّ التفاصيل الدقيقة في

---

(1) ولتر ستيس ترجمة امام عبد الفتاح امام الدين والعقل الحديث.

عالم الخلقة الأكبر والأصغر، وهذا يعني أنَّ حقَّ إدارة الكون والإنسان انتقلت من الله سبحانه إلى العلم الذي هو من إنجاز الإنسان نفسه، فلم يعد من إلهٍ في نهاية الأمر إلا هذا الكائن المسؤول عن إنتاج العلم الحديث الذي هو الإنسان.

ومن شأن هذا الإستنتاج أن يجرَّ إلى استنتاجاتٍ أخر، منها أنَّ كلَّ ما يترتب على الإيمان بالله من النتائج كالإيمان بالآخرة والجزاء بالجنة أو النار لم يعد معقولاً من هذه الجهة، فما دام الله سبحانه قد تخلّى عن السيطرة على العالم للإنسان، فليكن الإنسان نفسه هو المرجعيَّة النهائيَّة لتحديد القيم الأخلاقيَّة التي تناسب أوضاعه وأغراضه الآنيَّة المختلفة، وهذا يعني بدوره أنَّ الأخلاق لا يمكن أن تكون ثابتةً أو مطلقةً بعد ذلك، بل هي نسبيَّةٌ متحركةٌ بطبيعة الحال.

ثمَّ إنَّ الإنسان الغربيَّ الحديث لم يتزعزع في قلبه الإيمان بالمرجعيَّة الإلهيَّة فقط بناءً على ما استنتجه فلاسفة العلم الغربيّ، بل فقد أيضاً الإيمان بالغرض الكامن في العالم أيضاً، فحتى تلك المذاهب الفلسفيَّة أو الدينيَّة التي تنظر إلى العالم بصفته يمثل روحاً كليَّةً واحدةً، لم تعد تعني له شيئاً، فالعالم في نظره فاقدٌ للغرض، وهو فوضى عارمةٌ من الناحية المعنويَّة، مع أنه سائرٌ وفق أنظمةٍ وقوانين يستطيع أن يتنبأ بها العلم في الكثير من الأحيان، وفي هذه النقطة مفارقةٌ كبيرةٌ في نظري لم يستطع فلاسفة العلم أن يقدموا جواباً عنها، إلا أننا نتجاوز النقاش حولها الآن مع ذلك، لنقول إنَّ الأخلاق حتى من وجهة نظر الإنسان الغربيّ الفاقد للشعور الحيّ بالله أو بالغرض الكامن في ذات العالم، فإنه لا بدَّ أن تستند الأخلاق إلى غرضٍ ما، وما دام هذا الغرض لا يمكن أن يكون هو غرض الله وغايته، فيكون إذن هو الغرض البشريّ، وبهذه الحالة لا يبقى لثبات الأخلاق أيُّ معنى، لأنَّ الأخلاق ستقع حينئذٍ في فخِّ الذاتيَّة البشريَّة التي تتنوَّع أغراضها ومراداتها تبعاً للأهواء والغايات الجزئيَّة والفرديَّة المختلفة، ومن هنا تفقد الأخلاق معناها في الوجود ولا يعود الحديث عنها إلا حديثاً في الفراغ. [1]

إنَّ الربط بين المستوى العالي للبحث العلميّ وإنجازاته في مختلف المجالات وبين الإلحاد، أدّى إلى كلِّ هذا التخبُّط في نظر الإنسان الغربيّ فيما يخصُّ قضيَّة الأخلاق،

---

(١) انظر قريباً من هذا ولتر ستيس الدين والعقل الحديث ترجمة امام عبد الفتاح امام ص١٢٩.

وربما كان كلُّ ذلك مبرراً بمعنىً من المعاني في السياق المسيحيِّ للتفكير، فمن المعلوم أنَّ الكنيسة المسيحيَّة لم تكن لتسمح للعلم الحديث في بواكيره الأولى بأن يطرح نظرياته وما يتوصل إليه من خلال الإستقراء والتجريب، وكانت تقوم بإحراق جثث العلماء بصفتهم من الهراطقة والمجدفين، لا لذنبٍ إلا لأنهم أعلنوا نتيجةً علميَّةً في مجالٍ معيَّن، أو أنها تجبرهم على أن يتراجعوا عن تلك النتائج التي توصلوا إليها كما حصل فعلاً مع غاليلو. في حين تقدم الكنيسة رؤيةً للعالم ليس فيها أيُّ أثرٍ للعلم أو استنادٍ إلى الرؤية التي تقول إنَّ العالم محكومٌ بالقوانين والنواميس التي جعلها الله ثابتةً في هذا العالم، ولا يمكن أن تتخلَّف، خلافاً لما عليه واقع القرآن الذي يدعو إلى النظر في الكون، وإلى السياحة العلميَّة بكلِّ معانيها التي يمكن تصورها لمعرفة واكتشاف تلك السنن والقوانين التي تحكم العالم الماديَّ والمعنويَّ كذلك، وإلى هذا المعنى أشار السيِّد الشهيد محمد الصدر قدس سره في قوله هذا: ﴿ومثل هذه الكنيسة ذات هذه الأعمال وهذه العقائد هي أهلٌ لأن تحارب، وأهلٌ لأن تقف الثورة منها كما تشاء. ولكنَّ الغلط الفاحش الذي يقوم به دعاة الإلحاد المتأثرون بالفكر الحديث على أبشع صوره، وبالشكل الذي هم يفهمونه، وبالشكل الذي يمثِّل مصالحهم الخاصَّة، دون أن يعرفوا ما قصد إليه الفكر الحديث بالضبط. إنَّ الغلط الفاحش الذي يرتكبه هؤلاء هو إطلاق القول في الإعتراض على جميع الأديان، والدعوة إلى التخلي عنها جميعاً، كأنَّ شرذمةً معيَّنةً تنسب نفسها إلى دينٍ من الأديان إذا تعسَّفت وأجرمت بحقِّ شعبها ودينها، فكأنَّ دينها مسؤولٌ عما تفعل. أو أنَّ الأديان كلَّها مسؤولةٌ عن ذلك، وكأنَّ ديناً من الأديان – ولو فرضاً – إذا كان باطلاً وقد ذاق منه معتنقوه الوبال، فشددوا الخناق على رجاله، وتملَّصوا من عقائده، كأنَّ كلَّ الأديان يجب أن يشدد عليها الخناق، وأن يتملَّص الناس من عقائدها. وكأنهم لا يعلمون بأوربا أنها إنما تمرَّدت على المسيحيَّة، وإنما شددت الخناق على رجال الكنيسة، تلك المسيحيَّة المحرَّفة عن واقعها الذي نزل على عيسى بن مريم، على نبينا وعليه السلام، وأولئك الرجال الذين أكثروا في البلاد الفساد. وإنما عنت أوربا بالدين، ذلك الدين الذي تمرَّدت عليه لأنه لم يكن بين ظهرانيها دينٌ آخر حتى تستند عليه بعد خروجها عن

المسيحيَّة أو تستثنيه عن هجماتها، أو حتى لتشركه في هجماتها وتمرُّداتها. [1]

هذا كلُّه مفهومٌ، وقد أنصف السيِّد الشهيد التأريخ الغربيَّ في سياق التطوُّرات الآيديولوجيَّة التي حصلت فيه، ولكن لا ينبغي للغربيين خاصةً في الدوائر العلميَّة المتخصصة أن تبقى أسيرة هذه العقد النفسيَّة إلى أبد الآبدين، فبعد أن تخلَّصت أوربا من ذلك الكابوس الكنسيِّ واستبداد رجال الدين المسيحيين، ومصادرتهم لحقِّ العلم والعلماء، كان لا بدَّ لهم أن تهدأ نفوسهم، وأن يحكِّموا النظرة العلميَّة والموضوعيَّة، ليعرفواة أنَّ الربط بين العلم والإلحاد ليس صحيحاً، وأنه لا يعني إلا أنَّ هناك حلقات مفقودةً في سلسلة التفكير، قد تجاهلها بشكلٍ جزافيٍّ ومرتجل، فإذ يكتشف العلم شيئاً واقعياً وهو أنَّ العالم يعمل طبقاً لسننٍ وقوانين كامنةٍ فيه لا تتخلَّف إطلاقاً، لا يستلزم هذه النتيجة، وهي أنَّ الله ليس موجوداً، أو أنَّ تلك العوالم الغيبيَّة التي تحدَّثت عنها الكتب المنزلة ليست واقعيَّةً، فشتان بين القضيتين، فالعلاقة بين الله وبين تلك القوانين ليست عرضيَّةً لينتج منها أنَّ الله إلهٌ وأنَّ تلك القوانين إلهٌ أيضاً، أو أنَّ أحدهما هو الإله على وجه التخيير، فيكون الموقف الإعتقاديُّ لصالح العلم على حساب نفي وجود الله سبحانه، بل العلاقة طوليَّةٌ تماماً، بمعنى أنَّ القوانين والسنن التي اكتشفها علم الإنسان، تدار من قبل واضعها نفسه، وهو الله سبحانه وتعالى، فالقوانين موجودةٌ فعلاً، وهي تعمل بشكلٍ لا يتخلف، ولكنها تستدعي عقل الإنسان إلى أن يفسر لنا قضيَّة وجودها نفسه، وأنها على هذه الصفة من الإتقان والثبات والكمال، ولا يمكن أن يوجد تفسيرٌ يطمئنُّ إليه العقل إطلاقاً إلا أن يكون الله هو الحلقة النهائيَّة التي تضع حداً لتلك السلسلة، وهذا ما عليه الفكر الإسلاميُّ خلافاً لما كان سائداً في الأوساط الغربيَّة قبل انتصار العلم هناك في ظلِّ سيادة الكنيسة.

ليست غايتنا أن نستفيض في هذا الحديث الذي تكون غايته تحليل النزعة الإلحاديَّة من جهة تحديد الدوافع التي جعلت الإلحاد هو النزعة السائدة في الكثير من الأوساط الغربيَّة، فلمثل هذا الحديث مكانٌ آخر، لكنَّ غايتنا هي أن نشير إلى أنَّ الأخلاق الذاتيَّة الفوضيَّة التي تعني النفي المطلق للأخلاق لا يعود لها ما يبرِّرها إذا ما

([1]) نظرات اسلاميَّة ص، ١٧٣، السيد محمد الصدر.

حسمنا النقاش حول هذه المسألة، وهي أن لا علاقة إطلاقاً بين العلم والإلحاد إلا من جهة العقدة النفسيَّة الموجودة في العقل الجمعيِّ للغربيين من تصرُّفات الكنيسة في تلك الفترات التي شهدت البواكير الأولى للنهضة العلميَّة في أوربا، لأنَّ الإلحاد فقط هو الذي يبرِّر النسبيَّة المطقة للأخلاق، باعتبار فقدان الغاية والغرض الإلهيِّ من وجود الحياة ككلّ، أما إذا قلنا بأنَّ الله موجودٌ وأنَّ هناك غايةً وغرضاً إلهيين من الحياة فلا بدَّ أن تكون النتيجة محسومةً لمصلحة القيم الأخلاقيَّة التي تنسجم أساساً مع فطرة الإنسان، لأنَّ الفطرة في نهاية الأمر لا تعني إلا أنَّ الذهن الإنسانيَّ يحتوي على قوالب للتفكير تفصل بين المعطيات التي يقدِّمها الواقع الموضوعيُّ على صعيد الفكر أو على صعيد المادَّة، فما لم يشر العقل إلى وجود تناقضٍ بين تلك المعطيات، وما دام العقل يجد أنَّ الإنسجام والإتساق المنطقيَّ متحققٌ بينها، فهذا يعني أنها لا تختلف إطلاقاً مع حكم الفطرة الإنسانيَّة، والإسلام حقٌّ كله من ألفه إلى يائه بهذا المعنى، أي بمعنى أنَّ كلَّ النظام الإجتماعيِّ والأخلاقيِّ والقانونيّ، وكلَّ ما أخبر عنه من المعلومات الغيبيَّة لا تناقض حكم الفطرة التي بيّنا جانباً من معناها، إذ الحديث عنها بشكلٍ كاملٍ مما لا يتسع له مثل هذا المقام.

الإنسانُ أثمنُ رأسمالٍ في العالم

من المفارقات العجيبة أن يكونَ قائل هذه العبارة هو ماركس، فهل يبقى الإنسان مستحقّاً لهذه المنزلة إذا ما سرنا معه حتى النهاية المنطقيَّة للفلسفة الماديَّة التي آمن بها، ودافع عنها، وكان المنظِّرَ الأبرزَ لها في التأريخ الإنسانيّ، فهل يظلُّ الإنسانُ مالكَ الأشياء وسيِّدَها، والمهيمنَ على كلِّ ما في الوجود من الأشياء الحيَّة وغير الحيَّة، باسم الخلافة التي منحها الله إيّاهُ طبقاً للرؤية الإسلاميَّة المعروفة، أم أنَّهُ ستتضائلُ إنسانيَّتُهُ مرَّةً بعد مرةٍ حتى يتحولَّ إلى مجرَّد شيءٍ بين الأشياء، أو ربما سيطرت عليه الأشياء التي يصنعها بنفسه، لتمارس عليه هيمنتها وسلطانها، دون أن يستطيع إطلاقاً استعادة السلطة عليها تارةً أخرى.

لقد ضاق فلاسفة الغرب بالبعد المعنويِّ والروحيِّ للإنسان نتيجة مختلف المؤثِّرات والعقد التي رافقت مسيرة الغرب في التأريخ الوسيط والتأريخ الحديث

كذلك، فلم يبقَ أمامهم إلا أن يعتبروا للبعد الماديِّ في تكوين الإنسان تلك المكانة الأوحديَّة العظمى، وإذا كانت نظرة الإنسان الأوربيِّ الحديث إلى نفسه هي هذه، فمن الطبيعيِّ أن لا يبقى له حقٌّ في مقارنة نفسه مع أشياء العالم إلا بناءً على هذه النظرة الماديَّة التي تختزل كلَّ أبعاد الإنسان في بعدٍ واحد، وهو بعدُه الماديّ البايلوجيّ الذي سيتضائل حتماً أمام العديد من أجناس الموجودات الحيَّة وغير الحيَّة الأخرى، وستتفوَّق عليه في مجال تحديد الأهميَّة كذلك، حتّى تصبح المفارقةُ الكبرى واقعاً، وهي تلك المفارقة التي تتمثَّل في أنَّ مخلوقات الإنسان نفسه من الموجودات التقنيَّة والتكنلوجيَّة وغيرها ستسيطر عليه، ويفلت عقالها من زمامه، كما إنَّ قيمته الكبرى التي كان يستمدُّها من إنسانيَّته ذات البعد الروحيِّ والمعنويِّ ستكون صفراً أمام القيمة العليا بالمنظار الماديِّ للأشياء، بما في ذلك الأشياء التي يبدعُها عقلُه، وتكون خاضعةً في سنن تطوُّرِها ونموِّها وتعقيدها لموهبته الذهنيَّة، ولم يظلمه أحدٌ في هذه القسمة الضيزى أبداً، لأنَّه هو بنفسه من تنازلَ عن حقِّه في الإستئثار بالبعد الأهمِّ في وجودِه، وهو البعد الروحيُّ والمعنويُّ الذي جاءت الأديان لتعزِّزه ولتجعل منه مركزاً لاعتزاز الإنسان بنفسه، ولتكون دافعاً له كي يكتشف المزيد من وسائل السيطرة على أشياء العالم بالعلم والكشف والإختراع، لكن لا ليعيش الإستلاب والتشيُّؤ أمام سواهُ من المخلوقات الموجودة في الطبيعة التي خلقها الله، أو من الأشياء التي ساهم هو في تشكيلها وإيجادها ممّا حفلت به الحضارة البشريَّة في الأزمان الحاضرة.

لن يكون الإنسان أثمن رأسمالٍ في العالم إطلاقاً، حتى يستعيد ذلك البعد الذي سلبته منه الفلسفات الغربيَّة الماديَّة، ولن يكون سيِّد نفسه إلا بأن يكتشف ذلك النبع الإلهيَّ الخالد الذي أهَّله أن يكون خليفة الله في الأرض، وهو حرِّيَّتُه من كلِّ أنواع العبوديّات المستورة والعلنيَّة، بما فيها عبوديَّتُه لهوى نفسه ورغباته النابعة من رؤيته المحدودة في تحديد المصالح والمفاسد التي تنطوي عليها الأشياء والأفكار، لتكون تلك الحريَّة الإنسانيَّة المنشودة مستندةً إلى أهمِّ ركيزةٍ أساسيَّةٍ متينةٍ وهي التسليمُ لله وحده، مع تحطيم كلِّ الأصنام التي تنتمي إلى الوثنيات المختلفة، بما فيها وثنيَّة المدنيَّة عندما تريد أن تحتكر المعنى لنفسها، وتصادرَ وجود الإنسان.